الفصل العشرون

قراءة القرآن الكريم قراءة تاريخية

يحتم المنطق الدينى القديم : منطق رجال التشريع الإسلامى من الفقهاء والأصوليين ، ويحتم المنهج العلمى الحديث : منهج رجال الفكر الاجتماعى والعلماء بالدراسات الإنسانية ، على المهتمين بالدراسات القرآنية الراغبين فى تتبع المسار التاريخى لكل الموضوعات الجديدة التى طرحها القرآن الكريم فى مجتمع الجزيرة العربية مستهدفا من وراءها إحداث تغييرات جذرية عميقة فى هذا المجتمع - يوم أن كان ينزل من السماء ، ويوم أن كان يتلقاه عن الوحى محمد بن عبد الله عليه السلام فيبلغه الناس ويبينه لهم .

يحتم المنطق والمنهج على هؤلاء أن يقرءوا القرآن الكريم قراءة تاريخية - تبدأ بأول ما نزل من القرآن الكريم فى مكة وتنتهى بآخر ما نزل من القرآن الكريم فى المدينة حسب ترتيب النزول .

إن هذه القراءة التاريخية للقرآن الكريم هى السبيل الوحيد للتعرف على كل الأبعاد لتلك الحركة الفكرية الثوريه التى جذبت انتباه الناس يومذاك وشدتهم إليها شداً ، وأثارت فيما بينهم جدلا قويا وصراعا عنيفاً .

لقد ظل القرآن الكريم ينزل من السماء لمدة ثلاث وعشرين سنة .

ولقد ظل القرآن الكريم يطرح على الناس ، فى هذه المدة المتطاولة من قضايا التجديد ما يؤرقهم ، ويبلبل أفكارهم .

فى النفوس ، ويصبح من القوى الفعالة الدافعة إلى التجديد .

وهذا هو الذى يشير إليه القرآن الكريم فى الرد على هذه الشبهة حين يقول مرة :

« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » .

وحين يقول أخرى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا » .

الثانية : — أن هجوم الجديد دفعة واحدة لن يكون فى صالح الجديد من حيث أن الناس يظلون يرفضون الجديد حتى تستعد أنفسهم وتتهيأ قلوبهم للايمان به ، وممارسة الحياة على أساس منه .

وهذه الحقيقة النفسية هى التى يشير إليها القرآن الكريم حين يقول بصدد بيان أن نزول كتاب من السماء دفعة واحدة لن يغير الموقف ، ولن يدفعهم إلى الإيمان بمحمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين »

وواضح من هـــذه الآية أن نزول القرآن منجما ليس هو السبب فى موقفهم العنيد من النبى عليه السلام ، ورفضهم له وللقرآن الكريم .

إن السبب الحقيقى هو أن نفوسهم وعقولهم وقلوبهم لم تتهيأ بعد لقبول الجديد ، وأن الطبيعة البشرية تستلزم فسحة من الوقت وتستلزم تكرارا للجديد فى أزمنة متفاوته حتى تطمئن هذه الطبيعة إلى هذا الجديد ، وتؤمن به ، وتمارس الحياة على أساس منه .

وكانوا يرفضون التغييرات الجذرية على أساس من إيمانهم بما كان

كان ينزل منجما — أى على دفعات ، وكان يستثير فى كل دفعة أفكار الناس وخواطرهم وانفعالاتهم .

وكان ينزل لمناسبات — أى حسب الظروف والأحوال ، ليبين للناس موقفهم ، ويرشدهم إلى أفضل السبل فى تحقيق الأفضل .

وكان هذا الصنيع من القرآن محل جدل وحوار منذ اللحظات الأولى ، وإلى أن تحقق النصر وأعيد بناء المجتمع العربى من جديد على أساس جديد ، ونزلت الآية القرآنية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » .

وكان مثار الجدل والحوار نزول القرآن منجما من جانب ، واستهداف القرآن الكريم للتغييرات الجذرية التى تتناول الآراء والمعتقدات ، وتتناول التقاليد والعادات ، وتتناول القيم الأخلاقية والمعايير السلوكية ، وتتناول كل ما كان يمارس به الجاهليون حياتهم اليومية ، من الجانب الآخر .

كانوا يشككون فى أمر النبى عليه السلام وأمر القرآن الكريم على أساس من نزول القرآن منجما وعلى دفعات ، وكانوا يقولون فيما يحكى القرآن الكريم عنهم :

« لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » .

وكان القرآن الكريم يجيب عن ذلك استنادا إلى حقيقتين توجدان عند قيام أية ثورة صادقة تستهدف التجديد .

الأولى : — أن هجوم الجديد دفعة واحدة لن يكون فى صالح الجديد أبدا ، ذلك لأن الناس يعجزون عن استيعاب الجديد دفعة واحدة ، ومن هنا كان لابد من التجزئة ، ولابد من التكرار ، حتى يثبت الجديد ويستقر

حتى تحققت التغييرات الجذرية ونزلت الآية القرآنية . « اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا » .

القراءة التاريخية هى السبيل الوحيدة إلى كل ذلك ، ولا سبيل غيرها .

وتيسير هذه القراءة يقتضى أن يكون إلى جانب المصحف الشريف الذى بين أيدينا مصحف آخر يرتب ترتيبا تاريخيا حسب نزول القرآن الكريم من السماء .

ولن يقال لنا : إن قراءة المصحف الشريف على الصورة التى هو عليها الآن كافية فى إمداد المهتمين بالدراسات القرآنية بالآيات التى تكشف لهم عن المسار التاريخى للحركة الفكرية الثورية التى أحدثها القرآن الكريم فى المجتمع العربى الجاهلى ، لن يقال لنا ذلك لأننا نعلم :

أولا : — أن قراءة المصحف الشريف على هذه الصورة التى هو عليها لم تسعف أبدا رجال التشريع فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى .

لم تسعفهم أبدا ، ومن هنا لجأوا إلى القراءة التاريخية للقرآن الكريم .

لقد كان رجال التشريع الإسلامى يعمدون — عند قيامهم باستنباط الأحكام الشرعية — إلى جمع الآيات القرآنية التى تتعلق بالمسألة التى يرغبون استنباط الحكم الشرعى فيها .

وبعد الجمع كانوا يجهدون أنفسهم فى ترتيب هذه الآيات حسب نزولها من السماء ، فيضعون فى رأس القائمة ما نزل أولا . ثم الذى تلاه ، وتلاه ، وهكذا إلى أن يصبح فى نهاية القائمة آخر ما نزل .

عليه الآباء والأجداد من قبل ، وذهابهم إلى أن ما كان عليه هؤلاء الآباء هو الأسلوب السليم فى ممارسة الحياة .

وكان القرآن الكريم يصور موقفهم هذا فى آيات عديدة ، نذكر من بينها تلك الآية التى يستنكر القرآن الكريم عليهم فيها هذا الموقف ، ويبين لنا ولهم أسباب الاستنكار .

كانوا يقولون فيما يحكى القرآن الكريم عنهم : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » .

وكان القرآن الكريم يجيب مستنكرا : « أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » .

وواضح من الآية أن القرآن الكريم ينكر على الناس أن يتبعوا ما كان عليه آباءهم لمجرد أنهم آباء لهم .

لابد من إعمال العقل فى الجديد ، واتباع ما يهدى إليه العقل من طريق مستقيم يتجنب الإنسان من المسار فيه، المضار ، ويحقق الإنسان من المسار فيه ، الخير العام .

* * *

قراءة القرآن الكريم قراءة تاريخية هى التى تثرى الدراسات القرآنية وهى التى تكشف لنا عن القضايا الجديدة التى طرحها القرآن الكريم وعن أولويات هذه القضايا ، كما يكشف لنا عن الصراعات الفكرية التى دارت فى شأنها وعن أبعادها المختلفة . ثم هى التى تكشف لنا أخيرا عن العوامل النفسية والذهنية التى صاحبت هذه الصراعات، وعن الظاهرات الدينية والاجتماعية التى أوجدتها، وعن الكيفية التى استثمرت فيها هذه الصراعات،

ثانيا : — أن قراءة المصحف الشريف على أساس من الصورة التى هو عليها اليوم تقلب الأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية رأسا على عقب، وتوقع الدارس فى متاهات لن يخرج منها إلا بالقراءة التاريخية ، ويتتبع الدستور الذى اهتدى إليه الأقدمون من رجال الفقه الإسلامى وعلماء الأصول.

إن قارىء القرآن الكريم على أساس من هذه الصورة التى يقوم عليها المصحف الذى بين أيدينا، انما يبدأ بقراءة المدنى من القرآن وينتهى بقراءة المكى.

وليس هكذا نزل القرآن .

ثم إن القارىء على هذه الصورة يلتقى بما نزل من القرآن فى شأن غزوة أحد قبل أن يلتقى بما نزل فى شأن غزوة بدر ، ومن المعلوم لكل مسلم أن غزوة بدر وقعت أولا .

ويقع هذا القارىء فى حيرة عندما يحاول الوقوف على حقيقة موقف القرآن الكريم من قضية محاربة الملائكة إلى جانب المسلمين فى كل غزوة من الغزوتين ، لا سيما وهو يرى أن المفسرين قد أفرغوا جهدهم فى الحديث عن ملائكة أحد قبل الحديث عن ملائكة بدر ، وأنهم أطالوا عند حديثهم عن ملائكة بدر وأحالوا على ماقالوه فى ملائكة أحد .

ولم تحدث الغزوات تاريخيا على هذا الأساس .

ثم إن قارىء القرآن على هذه الصورة إنما يبدأ بالتعرف على العلاقات الدينية فى تركيب المجتمع المدنى قبل أن يتعرف عليها فى تركيب المجتمع المكى .

وليس هكذا مضت الدعوة الإسلامية .

والأولويات نفسها فى كل شىء تقريبا لا تعرف أبدا فى القراءة على الصورة التى يقوم عليها المصحف الحالى .

ثم بعد الجمع والترتيب الزمنى يتدارسون هذه الآيات لبيان المسار التاريخى لمضمون الحكم الشرعى، وكيف وقف هذا المضمون عند حالة بعينها، أو عند مرحلة أخيرة بتحدد على أساس منها الحكم الشرعى .

وهذا الأسلوب فى العمل هو الذى ساعد رجال التشريع الإسلامى فى استنباط الأحكام الشرعية ، وهو الذى مكنهم فى الوقت ذاته من الوقوف على الكثير من مبادىء التشريع الإسلامى .

والأحكام الشرعية التى وصلوا إليها هى التى تتكون منها هذه الكتب العديدة التى نسميها بكتب الفقه .

والمبادىء التشريعية التى وصلوا إليها هى التى تتكون منها هذه الكتب التى نعتز بها من تراثنا الفكرى ، وهى كتب أصول الفقه .

إن القراءة التاريخية للقرآن الكريم هى التى مكنت رجال التشريع الإسلامى من الوقوف على القواعد الأصولية التالية :

قاعدة التدرج فى التشريع .

قاعدة النسخ .

قاعدة الإطلاق والتقييد .

قاعدة التخصيص والتعميم .

وما إلى ذلك من قواعد تجب مراعاتها عند استنباط الأحكام الشرعية من النصوص الدينية المتمثلة فى القرآن الكريم ، وفيما صح من الحديث النبوى الشريف .

ونحن نسلم بهذا القول ، وتلتزم بهذا الترتيب .

بل نحن نذهب إلى أن هذا الترتيب للآيات فى السور لن يعوق القراءة التاريخية فى كثير أو فى قليل .

لقد نص الأقدمون على الآيات المكية الواردة فى سور مدنية ، كما نصوا على الآيات المدنية الواردة فى سور مكية ، وهذه كلها اعداد قليلة من الآيات ، ويستطيع قارىء القرآن ان يتفطن اليها عندما يقرأ القرآن الكريم قراءة تاريخية .

وهذه أمثلة مما نص عليه الأقدمون فى ذلك .

يقولون عن سورة العنكبوت : انها مكية الا الآيات من ١ - ١١ فمدنية .

ويقولون عن سورة الفرقان : انها مكية إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ فمدنية .

ويقولون عن سورة التوبة : انها مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان .

ويقولون عن سورة البقرة : انهـــا مدنية إلا آية ٢٨ فنزلت بمنى فى حجة الوداع .

ويقولون فى سورة المائدة : انهـا مدنية إلا آية ٢ فنزلت بعرفات فى حجة الوداع .

وهكذا فى كل سورة يختلط فيها المكى بالمدنى ، مما ييسر سبل القراءة التاريخية ويجعلها موصلة لغاياتها ومحققة لأهدافها .

أما النوع الثانى - وهو ترتيب السور فى المصحف - فقد قالوا عنه : إنه اجتهادى — أى من اجتهادات السابقين الأولين من القراء المسلمين .

وهذا النوع هو الذى نقف عنده ، ونقابل فيه اجتهادا باجتهاد .

إن قراءة القرآن تاريخيا تكشف عن أن اهتمامات القرآن الكريم كانت أولا بكل مايتصل بالقضايا الاجتماعية، وخاصة تلك التى تتعلق بذوى الحاجات من اليتامى والفقراء والمساكين .

لم تجىء اهتمامات القرآن الكريم بقضايا العبادات أولا ، وإنما جاءت ثانيا ، وحين جاءت وضعت فى اطار من القضايا الاجتماعية .

إن كل الذين يتحدثون عن حكمة الخالق فى فرض العبادات الدينية انما يتحدثون عن الاحتياجات التى يعانيها الفقراء ومن اليهم من ذوى الحاجات.

لابد من قراءة القرآن الكريم قراءة تاريخية حتى تثرى الدراسات القرآنية ، وحتى نقف على كل الأبعاد التى استهدفها القرآن الكريم من تحقيق التغيرات الجذرية .

وقضية الترتيب التاريخى للقرآن الكريم التى ندعو اليها اليوم ليست جديدة فقد تناولها من قبل الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا .

تحدث الأقدمون عن ترتيب القرآن الكريم ، وفرقوا لنا بين نوعين من الترتيب .

الأول : ترتيب الآيات فى السور

والثانى : ترتيب السور فى المصحف الشريف .

وقالوا لنا عن النوع الأول انه توقيفى - أى موحى به من السماء ، وقالوا لنا أيضا أن جبريل اقرأه محمدا عليه السلام على هذه الصورة المروية فى المصحف .

الدعوة القرآنيـــة فى ظروفها التاريخية ، وفى أطرها الفكرية أو الاجتماعية .

إن الترتيب التاريخى هو الذى يحقق هذه المعايشة ، ثم هو الذى يبرز الصورة الحقيقية التى أنزل الله بها القرآن من السماء .

إن مصحف اليوم لا يبرز أبداً صورة انزال القرآن الكريم من السماء — تلك الصورة التاريخية التى جاءت على أساس من المناسبات التاريخية والظروف الاجتماعية للمسلمين ومن عاداهم — تلك الصورة التى يرسم ملامحها العلماء المسلمون فى كتب أسباب النزول .

ما نطالب به ليس بدعا بقدر ما هو تصحيح للأوضاع .

إننا نطالب بأن يكون المصحف الشريف صورة صادقة للكيفية التى أنزل الله عليها القرآن الكريم من السماء .

وهذه الصورة محددة تحديداً دقيقا فى كتب السابقين الأولين من القراء المسلمين .

ولقد ساعد فى كشف هذه الصورة وإبراز ملامحها للعيان الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى شيخ المقارىء المصرية .

ولقد ساعد فى ذلك مجموعة من المشهود لهم بالعلم والدين ممن لا يتطرق الشك إلى ما قاموا به من عمل مجيد .

هذه المجموعة تتمثل فى كل من :

حفنى بك ناصف .

الشيخ أحمد الاسكندرى .

إننا إنما نقابل بين نوعين من الاجتهاد ، وكل واحد منهما من اجتهادات السابقين الأولين .

أحد الاجتهادين هو الذى جرى به العرف ، وهو الذى نجده فى المصحف الذى بين أيدينا .

والثانى من الاجتهادين هو الذى نجده منصوصا عليه فى كتب الأقدمين. وإن لم يطبع على أساس منه مصحف شريف حتى اليوم .

ونرى نحن أن الاجتهاد الذى جرى عليه العرف هو الاجتهاد المرجوح وإن الإجتهاد الذى لا يزال من النصوص التى لم تتحول إلى واقع عملى بعد ، هو الاجتهاد الراجح .

ونرجو أن يفكر معى القارىء ، وألا يقول ما كان يقوله الجاهليون من قبل : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مقتدون .

يجب أن يعلم القارىء أن التقليد معيب فى القرآن الكريم ، وأن إعمال العقل والفكر هو المطلوب من الانسان المسلم حتى لا يصبح من الصم البكم الذين لا يعقلون .

لقد قام الاجتهاد الأول على أساس من طول السور وقصرها ، ومن هنا جاءت الطوال أولا ، ثم المئين ، ثم المثانى ، وجاءت القصار آخرا ، ومن هذا أيضا جاء المدنى أولا وجاء المكى آخراً من حيث أن أكثر الطوال من القرآن المدنى وأكثر القصار من القرآن المكى .

ولم يكن لهذا الترتيب من فائدة من حيث قدرة الانسان المسلم على معايشة

وكتاب أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى .

وكتاب تحقيق البيان للأستاذ الشيخ محمد المتولى شيخ القراء بالديار المصرية سابقا .

رابعاً : — بيان أوائل أجزائه الثلاثين وأحزابه الستين وأرباعها .

أخذ من كتاب غيث النفع للعلامة السفاقسى ؛ وناظمة الزهر وشرحها وتحقيق البيان ، وإرشاد القراء والكاتبين ، لأبى عيد رضوان المخللاتى .

خامساً : — بيان مكية ومدنية .

أخذ من الكتب المذكورة ، ومن كتاب أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى ، وكتب القراءات والتفسير . .

ونقف عند هذا الحد من المجهودات التى بذلها الشيخ محمد بن على بن خلف شيخ المقارىء المصرية ففيه الكفاية ، وفيه الدليل القوى على إسناده ما انتهى إليه من إبراز صورة هذا الترتيب التاريخى لنزول القرآن الكريم من السماء إلى السابقين الأولين .

ونضع أمام بصر القارىء وبصيرته هذه الفسمات أو هذه الملامح للصورة التى نرجو أن يطبع عليها المصحف الشريف من جديد .

ينص المصحف على ما يلى : —

١ — سورة المطففين مكية ، وآياتها نزلت بعد العنكبوت ، وهى آخر سورة نزلت بمكة .

٢ — سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ — ١١ فمدنية ، و آياتها ٦٩ — نزلت بعد الروم

الشيخ مصطفى عفان

لقد رجع شيخ القارىء المصرية إلى العديد من الكتب قبل إشرافه على طبع المصحف الشريف طبعة أنيقة نعتز بها .

رجع إلى كتب عديدة عالجت القضايا التالية :

أولا : — هجاؤه :

أخذ مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التى بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة والشام ومكة . والمصحف الذى جعل لأهـــل المدينة . والمصحف الذى اختص به نفسه .

وعن المصاحف المنتسخة منها .

ثانياً : طريقة ضبطه :

أخذت مما قرره علماء الضبط على حسب ما ورد فى كتاب — الطراز على ضبط الخراز .

مع إبدال علامات الأندلسيين والمغاربة بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشارقة .

ثالثاً : — عد آياته .

اتبعت فى عد آياته طريقة الكوفيين عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى عن على بن أبى طالب .

على حسب ما ورد فى :

كتاب ناظمة الزهر للامام الشاطبى ، وشرحها لأبى عيد رضوان المخللاتى .

إننا إنما ندعو إلى تحقيق الصورة التى نزل عليها القرآن من السماء بقدر ما تسعف النصوص التى بين أيدينا . والتى ورثناها عن السابقين الأولين من التابعين وتابعى التابعين، ومن إليهم .

وتحقيق هذه الصورة سهل يسير فالخطوط الرئيسية بين أيدينا — وما علينا إلا أن نبرز ونبين الملامح .

والله الموفق إلى الصواب ؛ وإلى ما فيه خير الإسلام .

٣ — سورة الروم مكية إلا آية ١٧ فمدنية ، وآياتها ٦٠ — نزلت بعد الانشقاق .

٤ — الانشقاق مكية ، وآياتها ٢٥ — نزلت بعد الانفطار .

٥ — الانفطار مكية ، وآياتها ١٩ — نزلت بعد النازعات .

٦ — سورة النصر ، نزلت بمنى فى حجة الوداع فتعد مدنية ، وهى آخر ما نزل من السور ، وآياتها ثلاث — نزلت بعد التوبة .

٧ — التوبة مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان ، وآياتها ١٢٩ — نزلت بعد المائدة .

٨ — المائدة . مدنية إلا آية ٢ فنزلت بعرفات فى حجة الوداع . وآياتها ١٢٠ نزلت بعد الفتح .

٩ — الفتح . مدنية — نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية وآياتها ٢٩ . نزلت بعد الجمعة .

١٠ — الجمعة . مدنية ، وآياتها ١١ — نزلت بعد الصف .

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة ففيه الكفاية .

وندعو إلى تيسير الأمر فى اثراء الدراسات القرآنية وتسهيل سبلها على الدارسين والباحثين .

ولسنا نخالف حكما شرعياً أو نصاً قرآنيا فى دعوتنا هذه ، فليس هناك إلزام بأن يقرأ القارىء أو المقرىء القرآن الكريم بنفس الترتيب القائم فى المصحف ، وإنما له حق الاختيار فيما يقرأ وفيما يدع من السور وبدون ترتيب .